مؤتمر ظاهرة التكفير .. الأسباب .. الآثار .. العلاج

المحور ٣- البحث ١١

عقلية التكفير وسمات شخصيته
رؤية نفسية واجتماعية

د. محمد الشامي
طبيب نفسي

مقدمة

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد..

فإن الإمة الإسلامية قديما وحديثا لم تسلم من داء التكفير، وقد تعرض الإمام علي رضي الله عنه نفسه إلى عملية التكفير من قبل الخوارج الذين رفضوا التحكيم بين علي و معاوية. و بالرغم من أن مأخذهم لم يكن يتعدى الإجتهاد السياسي إلا أنهم أضفوا عليه صفة الكفر و الإيمان ، و ذهبوا إلى حد شق وحدة الإمة المسلمة و إعلان الحرب على المسلمين.

و منذ ذلك الحين استمرت ظاهرة التكفير في المجتمع الإسلامي ، وكانت تنتشر و تستعر أحياناً و تتقلص و تخبو أحيانا أخرى، فبينما كانت الحروب الداخلية والظروف الإقتصادية السيئة تؤججها ، كانت أجواء السلام والرخاء تطفئها وتقضي عليها.

و إذا لم تكن عملية التكفير صارخة وصريحة أحيانا ، فإنها كانت تقترب من ذلك أحياناً أخرى، حيث تنسب كل جهة إلى نفسها الصواب المطلق والرشد التام ومعرفة الإسلام الحق، في حين تتهم الطوائف الأخرى بالفسق والضلال، مما كان ينعكس سلبا على علاقة كل فريق بالأخر، ويؤدي إلى تصور كل فرقة أنها هي الناجية الوحيدة فتعامل الأخرين وكأنهم من أهل النار.

وعندما ظهرت الخوارج في عصر الصحابة الأول ظهر فيهم من الصفات ما قد صح عن النبي ﷺ وما ذكرته السير والتواريخ حتى عصرنا الحديث. هذه الصفات تُظهر لنا بعض الخصائص النفسية والاجتماعية لهذه الفرقة تميزها عن غيرها من الفرق. هذه الصفات والخصائص قد أفرزت نتاجا فكريا ضالا

فاسدا في منهجه يتطلب علاجا متعدد النواحي، لا يصح أن يغفل فيه عن العلاج النفسي والاجتماعي.

ومن هذا يتضح أن هناك أسبابا أنتجت نتاجا فاسدا يحتاج إلى علاج. وبما أن التشخيص هو نصف العلاج فعليه يجب أن ننظر إلى هذه الشخصية والعقلية ما هي خصائصها وما هي صفاتها ثم نتطرق إلى كيف ظهرت هذه النبتة والأسباب التي أدت إلى ذلك من منظور نفسي واجتماعي، ثم نذهب إلى العلاج الذي يمكن تطبيقه على هذه الشخصية من أجل الوصول بها إلى منهج الوسطية الذي وصف الله به هذه الأمة في كتابه ونعتها الرسول ﷺ به في سنته.

لذا اخترت أن يكون بحثي بعنوان عقلية التكفير وسمات شخصيته كناية عن الأشخاص الذين يتبنون منهج الخوارج في التكفير، فجعلت التكفير شخصا له عقل وفكر وشخصية قد أنتجته أحداث وبيئة وتربية وظروف أدت في النهاية إلى هذا المنتج الغريب الذي يحتاج إلى تدخل ديني ونفسي واجتماعي وتربوي. ومن هنا جاءت هذه التسمية.

خصائص شخصية التكفير
من خلال أحاديث الرسول ﷺ

- قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "سيخرج في آخر الزمان قومٌ حدثاء الأسنان، سفهاء الأحلام يقولون من خير قول البرية يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية، فإذا لقيتموهم فاقتلوهم؛ فإن في قتلهم أجراً لمن قتلهم عند الله يوم القيامة"(١).
- وقال رجل للنبي ﷺ – وهو يقسم غنيمةً بالجعرانة –: يا محمد اعدل. قال: "ويلك ومن يعدلُ إذا لم أكن أعدل، لقد خبتَ وخسرتَ إن لم أكن أعدل" فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: دعني يا رسول الله، فأقتل هذا المنافق؛ فقال ﷺ: "معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي. إن هذا وأصحابه يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون منه كما يمرق السهم من الرمية"(٢).
- وكان النبي ﷺ يقسم ذهباً فجاء إليه رجل فقال: "اتق الله يا محمد"! فقال رسول الله ﷺ: "فمن يطع الله إن عصيته! أيأمنني على أهل الأرض ولا تأمنوني" ثم قال: "إن من ضئضئِ هذا(٣) قوماً يقرأون القرآن لا يجاوزُ حناجرهم يقتلون أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان، يمرقون من الإسلام

(١) البخاري، كتاب: فضائل القرآن، باب من رايا بقراءة القرآن، برقم ٥٠٥٧، ومسلم، كتاب: الزكاة، باب التحريض على قتل الخوارج ٧٤٦/٢، برقم ١٠٦٦.
(٢) البخاري، كتاب: فرض الخمس، باب ومن الدليل على أن الخمس لنوائب المسلمين، برقم ٣١٣٨، ومسلم، كتاب: الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم ٧٤٠/٢، برقم ١٠٦٣.
(٣) "من ضئضئ هذا" أي من أصله، وضئضئ الشيء أصله. شرح النووي ١٦٨/٧.

كما يمرق السهم من الرمية، لئن أدركتهم لأقتلنَّهم قتل عاد"[1].

- وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: "يخرج فيكم قومٌ تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم، وعملكم مع عملهم، ويقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية"[2].

ويتبين من هذه الأحاديث أن من صفات الخوارج أنهم:

- حدثاء الأسنان.
- سفهاء الأحلام[3].
- يقولون من قول خير البريّة.
- لا يجاوز إيمانهم حناجرهم، يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم[4].
- قومٌ تحقرون صلاتكم مع صلاتهم، وصيامكم مع صيامهم، وعملكم مع عملهم.
- يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرميّة.
- يقتلون أهل الإسلام، ويدعون أهل الأوثان.
- يخاطبون خير البرية بصيغة النداء المباشر.
- يتهمون خير البرية بالظلم.

(١) البخاري، كتاب: الأنبياء، باب قول الله تعالى: {وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودا} برقم ٣٣٤٤، ومسلم، كتاب الزكاة، باب ذكر الخوارج وصفاتهم، ٧٤١/٢، برقم ١٠٦٤.

(٢) البخاري، كتاب: فضائل القرآن، برقم ٥٠٥٨، ومسلم، كتاب: الزكاة، ٧٤٠/٢، برقم ١٠٦٤.

(٣) معناه: صغار الأسنان صغار العقول. شرح الإمام النووي ١٧٥/٧.

(٤) "لا يجاوز حناجرهم": لا تفقهه قلوبهم ولا ينتفعون بما يتلونه، ولا لهم حظ سوى تلاوة الفم والحنجرة والحلق إذ بهما تقطيع الحروف، وقيل معناه: لا يصعد لهم عمل ولا تلاوة ولا يقبل. شرح النووي على صحيح مسلم ١٦٥/٧.

يتضح من هذه الصفات أن الخوراج قوم يغلب عليهم حداثة السن وقلة العقل والعلم، يأخذون ظاهر العبادة ولا يعلمون باطنها، يقومون بالعبادات على أكمل وجه ولا تروق لهم أعمال غيرهم، يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، لا يعرفون فقه الخلاف ولا يحترمون المخالف لهم بل يتطاولون عليه، لا يحترمون أو يقدرون كبراء الناس إلا من كان على مذهبهم، ولا يتورعون من التطاول على غيرهم طالما هو مخالفهم، فلقد جوزوا على النبي صلى الله عليه و سلم نفسه أن يجور ويضل في سنته ، ولم يوجبوا طاعته و متابعته ، وإنما صدقوه فيما بلغه من القرآن دون ما شرعه من السنة التي تخالف بزعمهم ظاهر القرآن.

وهم على ذلك يظهرون بأنهم حاملو لواء الدين والجهاد بدلا عن جميع المسلمين. إن ظاهر تمسكهم بالدين يوهم عموم الناس ، ومن لا فقه له بأنهم أحق الناس بالدين ، وبالإسلام، و هم في الحقيقة على غير ذلك. ولذلك فهم يشتبهون على كثير من الناس. كما سئل على بن أبي طالب رضي الله عنه: أكفار هم ؟ قال من الكفر فروا. فقيل: فمنافقون هم ؟ قال: إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلاً ، و هم يذكرون الله بكرة و أصيلا. قيل: من هم ؟ قال: قوم أصابتهم فتنة فعموا وصموا.

التحليل النفسي لشخصية التكفير

عندما ننظر إلى هذه الصفات من ناحية نفسية يتبين لنا أن الذي يقع في التكفير لا يقع في ذلك بسبب مرض نفسي لكنه يحمل بعض السمات النفسية التي تجعل شخصيته غير سوية ينتج عنها هذا الفكر المنحرف. من هذه السمات سمات تتفق مع بعض الشخصيات المريضة مثل الشخصية السيكوباتية والبارانوية والنرجسية[1]، وهي في سبيل ذلك تستخدم ما يسمى بالحيل الدفاعية التي تمكنها من المحافظة على شكلها العام بدون أن تتأثر بالمثيرات حولها ومن أشهر الحيل الدفاعية: التبرير والتعميم.

تحمل شخصية التكفير بعض سمات الشخصية السيكوبايتة (ضد المجتمعية) التي تعادي الآخرين وتبذل في ذلك طريق العنف – مع اختلاف المبررات – مع عدم الشعور بالذنب أو الندم بل يعمل التبرير كحيلة دفاعية للتحفيز من أجل العنف وعدم الاكتراث بالنتيجة حتى لو أصاب الهجوم بعض الضحايا الغير مقصودين. هذا بالإضافة إلى عدم القدرة على التواصل من خلال الاجتماعيات المتعارف عليها في المجتمع بل تكون لهذه الشخصية أعرافها الخاصة التي لا تتفق ولا تستطيع أن تتوافق مع بقية المجتمع فتنعزل وتأخذ شخصية الضحية والمهاجم في نفس الوقت. كما أن هذه الشخصية تتوافق مع السيكوباتية في اندفاعها وتهورها – وهذا راجع إلى عدم الندم والمحاسبة – وهي مضطربة وعدوانية ومخادعة وتعتني بمصلحتها فقط على حساب المصلحة العامة للمجتمع. وهو شخص غير مسؤول ويتجاهل سلامة الآخرين.

(1) Kaplan and Sadock's: Synopsis of Psychiatry, Tenth Edition, 2007.

كما أن هذه الشخصية تحمل بعض صفات الشخصية البارانوية – الشخصية الاضطهادية – في أنها دائمة الشك في الآخرين والتوقع للأذى منهم ولا تثق في أي شخص إلا بشق الأنفس وبعد كل فروض الولاء والتسليم والطاعة. وهي في ذات الأمر لا تغفر ذنب أحد ولا تنساه بل تحمل البغضاء للغير مع الشك. وهذه الشكوك والظنون هي دائمة مشغلة للذهن متفقة عن أفكار عدوانية.

وتحمل هذه الشخصية كذلك بعض صفات الشخصية النرجسية التي تتسم بجنون العظمة، فهي لا ترى إلا نفسها فقط وكل ما عدا ذلك لا يمثل لها أي اهتمام، وهي مشغولة بإنجازاتها التي لا تحصى وعقليتها التي لا تخطئ، ولباقتها التي عن الحق لا تسكت، وشكيمتها التي في الله لا تهزم. دائما تطلب التقدير من الأتباع فهو أولى فروض التسليم والطاعة. وهي لا تتعاطف مع أحاسيس الآخرين ولا تشاركها بالعاطفة. وانظر كيف يرى نفسه أقوى الأقوياء في مواجهة كل الآخرين الضعفاء بالنسبة له.

يظهر من عرض هذه الأنواع من الشخصية التي تتفق مع شخصية التكفير في أن هذه الشخصية أنانية لا تفكر إلا من منطلق مصلحتها، وهي في هذه الحالة مصلحتها – بزعمها – هي أن تكون هي الفئة المنصورة الناجية الرافعة للواء الدين والجهاد وما يتبع ذلك من منافع ومكاسب. وهي في ذلك شخصية مندفعة لا تنظر إلا تحت قدميها ولا تدرك النتائج والعواقب المستقبلية التي قد تقع عليها وعلى المجتمع ككل. ثم هي لا تندم على ما تفعل فهي لا تخطئ لأن الخطأ ليس من شيمها بل هي مصيبة على طول الخط حتى لو كان الضحايا لم يكونوا هم المستهدفين في الاعتداءات. يغذي ذلك كله الحيلة الدفاعية التبريرية التي تبرر كل هذه الأفعال من أجل إضفاء المشروعية على الأفعال بدون الإحساس بالذنب أو الندم، يحفز ذلك تعميم الخطأ على جميع المجتمع

الذي يكفر – من وجهة نظر التكفير – لمشاركته بقية المجتمع ما يفعل أو حتى سكوته عن الكفريات التي يقع فيها المجتمع.

يوضح أحد الباحثين كيف أن التكفيري يبرر لنفسه أفعاله من خلال ٤ طرق. الأولى: التسويغ الديني والأخلاقي للفعل كحامي للدين من الكافرين. الثانية: إسقاط المسؤولية على القائد الذي تجب طاعته في المنشط والمكره. الثالثة: تصغير أو تجاهل خسائر الضحايا الأبرياء. الرابعة: سحب بساط الرحمة عن المستهدفين باعتبارهم خونة مرتدين منافقين بل وكافرين[1].

ويتنوع التحفيز من تحفيز مادي وتحفيز معنوي، والذي يعنينا هنا هو المعنوي. فالتحفيز يكون عن طريق الدفاع عن الدين ورفع رايته في ظل مجتمعات لا ترفع راية الإسلام، والتحفيز لنيل الشهادة في سبيل الله، وكسب أرض من الأعداء – المجتمع الكافر –، والنكاية في العدو الذي يحصل على جميع موارد الدولة بدون القيام بواجب الدفاع عن دين الله، ونشر الدين وهذا الفكر في الأرض، وطلب السمعة والشهرة بالقوة الكامنة لهذه الفئة المستضعفة المبتلاة في سبيل الله.

يلخص باحثين آخرين (فرانكو وبرونر)[2] الصفات التي يتسم بها التكفيري في ٩ صفات وهي:

- التناقض تجاه السلطة: يعني بذلك رفضه للسلطة المجتمعية العليا

(1) Rex A. Hudson, Marilyn Majeska: The Sociology and Psychology of Terrorism, Who becomes a terrorist and why? Federal Research Division, Library of Congress, Washington D.C., 1999.

(2) Ferracuti, Franco, and F. Bruno: "Psychiatric Aspects of Terrorism in Italy." Pages 199–213 in I.L. Barak–Glantz and C.R. Huff, eds., The Mad, the Bad and the Different: Essays in Honor of Simon Dinhz. Lexington, Massachusetts: Lexington Books, 1981.

ورضاه بالسلطة التي تتبناه.

- ضعف البصيرة: عن ما هو فيه وما يؤول إليه أمره.
- الالتزام بالطرق السلوكية القديمة: في تعديل الأخطاء عن طريق العنف.
- البعد العاطفي عن توابع أفعالهم: من خلال عدم الاكتراث بما حدث.
- الاضطراب في الهوية الذاتية: والتخبط في ذاته وأفعاله فلا تجده ثابتا.
- التفكير النمطي الجامد: الذي يلغي العقل تعبيرا أو تضمينا.
- هادم للذات وللغير: يضر نفسه والآخرين.
- ذو تعليم ضعيف المستوى.
- رؤية الأسلحة على أنها وسائل للوصول للأهداف واستخدام العنف كوسيلة أولى.

التصورات النفسية لنشئة شخصية التكفير

لقد أعطى علماء النفس فرضيات تبين سبب تكون شخصية التكفير، وأهمها هو:

- **فرضية الإحباط والعنف**hypothesis Frustration aggression:

وهذه الافتراضية تفترض أن كل احباط لا بد أن ينتج قدرا من العنف. ويتمثل هذا الإحباط من الوضع السياسي أو الاقتصادي أو الديني أو الاجتماعي أو.....[1][2]. ويتبين من هذه الفرضية أن حالة الاحباط العامة في الشعوب الإسلامية من ما يحدث من أحداث عامة للمسلمين وخاصة في بلاد المسلمين تنتج عنفا عند البعض كنوع من رد الفعل الذي يريد الشخص من خلاله أن يرفع عن نفسه هذا الإحباط أو في أقل التقديرات الإعذار إلى الله عما يحدث من أحداث. هذا والذي أراه يقترب من هذه الفرضية هي القاعدة الفيزيائية القائلة بأن كل فعل له رد فعل مساو له في المقدار ومضاد له في الاتجاه. وإذا ما كانت هذه القاعدة تنطبق على الحركة المادية فهي كذلك تنطبق على الحركة المعنوية النفسية. فإن العنف الذي تعرض له المسلمون في البلاد العربية كان له رد فعل معاكس من كراهية وشن حرب ضد الأنظمة الحاكمة إلى حد تكفير كل من يعمل أو ينتسب أو له علاقة بشكل أو بآخر بالقطاع الحكومي العام. وعلى الرغم من ذلك فإن بعض البلاد لا يزال

(1) Ted Robert Gurr, Why Men Rebel. Princeton, New Jersey: Princeton University Press, 1970

(2) Joseph Margolin "Psychological Perspectives in Terrorism." Pages 273–74 in Yonah Alexander and Seymour Maxwell Finger, eds., Terrorism: Interdisciplinary Perspectives. New York: John Jay, 1977.

يغفل عن هذا السبب وهذه النتيجة التي وصلت إليها، وانظر مثالا لهذا في الجزائر ومصر وباكستان.

- **فرضية الانتقام النرجسي** Narcissistic rage hypothesis:

وتقوم هذه الفرضية على أن السمات النرجسية التي تكون في الشخصة وهي التي لا تقبل النقد أو اللوم وتنظر إلى نفسها نظرة العظمة ولا تخطئ بينما الآخرون دائمو الخطأ في حقها، فإن العنف يكون هو السبيل إلى المحافظة على كيان هذه النفس التي تحافظ على نفسها من الانكسار[1][2]. وهذه الفرضية تفسر مدى ما يظهر من صعوبة من التواصل والتفاهم مع الخوارج منذ أيام الصحابة وحتى يومنا هذا ومدى تمسك زعمائهم برأيهم وعدم قبولهم للخلاف مع استخدام العنف كوسيلة أولية للتواصل مع الآخر. وانظر مثالا في واقعنا المعاصر كيف أن العمليات التفجيرية هي الوسيلة التي يستخدمها هؤلاء من أجل إيصال الرسائل إلى الأنظمة والحكومات.

- **فرضية الهوية السلبية**:Negative identity hypothesis[3] :

وهذه الفرضية قريبة من التي سبقتها من حيث أنها تتفق معها في مسألة الانتقام من خلال العنف لكنها تختلف عنها من ناحية أن الشخص يتبنى هوية سلبية غير إيجابية من من خلال تخبطه في المجتمع وفشله في بعض نواحي الحياة مما يغذي عنده دافع الانتقام من المجتمع.

(1) John W. Crayton. "Terrorism and the Psychology of the Self." Pages 33–41 in Lawrence Zelic Freedman and Yonah Alexander, eds., Perspectives on Terrorism. Wilmington, Delaware: Scholarly Resources, 1983.

(2) Richard M. Pearlstein: The Mind of the Political Terrorist. Wilmington, Delaware: Scholarly Resources, 1991.

(3) Knutson, Jeanne N. "Social and Psychodynamic Pressures Toward a Negative Identity. Pages 105–52 in Yonah Alexander and John M. Gleason, eds., Behavioral and Quantitative Perspectives on Terrorism. New York: Pergamon, 1981.

- **الفرضية التحليلية** Analytic hypothesis:

تقوم النظرة التحليلية التابعة لفرويد على اعتبار أن كل ما يحدث في الصغر ينطبع على الأشخاص عندما يكبرون. وعليه فإن العنف الذي يظهر على الأشخاص هو إما انعكاس لعنف تعرض له الشخص في طفولته ثم كبت هذا الشعور ثم ظهر عليه عندما كبر، أو هو نتيجة لحرمان عاطفي في أثناء الصغر والذي يحتاجه الشخص في نموه حتى تنمو مشاعره وأحاسيسه والتي يستخدمها في حياته. وهذه الحالة الأخيرة تظهر في طبيعة الجفاء الشعوري والوجداني الموجود عند أغلب التكفيريين، بالإضافة إلى تفضيلهم لحياة البداوة الجافة التي تغذي الجفاء المتأصل في نفوسهم.

الأسباب الاجتماعية لظهور التكفير

يظهر مما سبق مدى الدور المجتمعي في التسبب في نشوء ورواج هذا الفكر الغريب – وإن لم يكن مقصودا لذاته – سواء كان دور الأسرة أو المجتمع أو الأنظمة الحاكمة. وتتجلى أبرز الأسباب في الآتي[1]:

- الجهل وانتشار الأمية في العالم الإسلامي وبالأخص الأمية الدينية. بالإضافة إلى قلة بضاعة الشبان الغيورين من فقه الإسلام وأصوله، وعدم تعمقهم في العلوم الإسلامية واللغوية. الأمر الذي جعلهم يأخذون ببعض النصوص دون بعض، أو يأخذون بالمتشابهات، وينسون المحكمات، أو يأخذون بالجزئيات ويغفلون القواعد الكلية، أو يفهمون بعض النصوص فهما سطحيا سريعا، إلى غير ذلك من الأمور اللازمة لمن يتصدر للفتوى في هذه الأمور الخطيرة، دون أهلية كافية.
- الاستهانة بمحارم الله وأحكام شرعه في المجتمع، وعدم الأخذ على يد المكابر والمخالف، و إعراض أكثر المسلمين عن دينهم، عقيدة وشريعة وأخلاقاً، مما أوقعهم في ضنك العيش، وفي حياة الشقاء.
- العلمنة الصريحة في أكثر بلاد المسلمين، والتي أدت إلى الإعراض عن شرع الله، وإلى الحكم بغير ما أنزل الله، وظهور الزندقة والتيارات الضالة، والتنكر للدين والفضيلة. فضلا عن انتشار الكفر والردة الحقيقية جهرة في مجتمعاتنا الإسلامية، واستطالة أصحابها وتبجحهم بباطلهم، واستخدامهم أجهزة الإعلام وغيرها لنشر كفرياتهم على

(١) انظر: التكفير مفهومه أخطاره وضوابطه لأحمد محمد بوقرين، وحديث حول الأحداث لناصر العقل، و قضية التكفير بين أهل السنة وفرق الضلال في ضوء الكتاب والسنة لسعيد القحطاني، والغلو في الدين للويحق.

جماهير المسلمين دون أن يجدوا من يزجرهم أو يردهم عن ضلالهم وغيهم.

- تساهل بعض العلماء في شأن هؤلاء الكفرة الحقيقيين والعلمانيين والملحدين وعدهم في زمرة المسلمين[1].
- شيوع الظلم بشتى صوره وأشكاله: ظلم الأفراد، وظلم الشعوب، وظلم الولاة وجورهم، وظلم الناس بعضهم لبعض، بما ينافي مقاصد الشريعة، وما أمر الله به، وأمر به رسوله ﷺ، من تحقيق العدل، ونفي الظلم. ومنه اضطهاد حملة الفكر الإسلامي السليم، والدعوة الإسلامية الملتزمة بالقرآن والسنة، والتضييق عليهم في أنفسهم ودعوتهم. وبالمقابل التمكين لأهل الفسق والفجور والإلحاد، مما يعد أعظم استفزاز لذوي الغيرة والاستقامة.
- الجفوة بين العلماء والشباب والبعد عن التربية الجادة على يد الشيوخ والمدربين.
- ضعف التربية المنزلية والرقابة الوالدية على الأولاد بسبب انشغال الأبوين عن أبنائهم واختلاط الأبناء
- ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والتقصير فيه في أكثر بلاد المسلمين.
- تحكم الكافرين (من اليهود والنصارى والملحدين والوثنيين) في مصالح المسلمين، وتدخلهم في شؤون البلاد الإسلامية، ومصائر شعوبها عبر الغزو الفكري والإعلامي والاقتصادي، وتحت ستار المصالح المشتركة، أو المنظمات الدولية، ونحو ذلك مما تداعت به

(١) تأمل لما حدث بعد وفاة الهالك نصر أبو زيد من بكاء ورثاء له ولفكره المرتد، وقد صدر هذا ممن ينسبون أنفسهم إلى العلم.

الأمم على المسلمين من كل حدب وصوب، بين طامع وكائد وحاسد.

- الخلل في مناهج بعض الدعوات المعاصرة: فأغلبها تعتمد في مناهجها على الشحن العاطفي، وتربي أتباعها على مجرد أمور عاطفية غير منضبطة بضوابط الشرع وقواعد الدين، أو غايات دنيوية: سياسية واقتصادية ونحوها، وتحشو أذهانهم بالأفكار والمفاهيم التي لم تؤصَّل شرعاً، والتي تؤدي إلى التصادم مع المخالفين بلا حكمة. وهي في الوقت نفسه قد تقصِّر في أعظم الواجبات، فتنسى الغايات الكبرى في الدعوة، من غرس العقيدة السليمة، والفقه في دين الله تعالى، والحرص على الجماعة وجمع الكلمة على العلماء وأهل الحل والعقد، وتحقيق الأمن، والتجرد من الهوى والعصبية، وفقه التعامل مع العلماء والولاة والعامة، ومع المخالفين ومع الأحداث، وفق قواعد الشرع، والتورع عن القول على الله بغير علم، وعن الخوض في أعراض الآخرين.
- ضيق العطن وقصر النظر وقلة الصبر وضعف الحكمة: ونحو ذلك مما هو موجود لدى بعض الشباب. وهذا يظهر في الأخطاء التي تقع من الشباب في المجتمع ومن المجتمع في العلاج.
- تصدر حدثاء الأسنان وسفهاء الأحلام وأشباههم للدعوة وتوجيه الشباب بلا علم ولا فقه، فاتخذ بعض الشباب منهم رؤساء جهالاً، فأفتوا بغير علم، وحكموا في الأمور بلا فقه، وواجهوا الأحداث الجسام بلا تجربة ولا رأي ولا رجوع إلى أهل العلم والفقه والتجربة والرأي، بل كثير منهم يستنقص العلماء والمشايخ، ولا يعرف لهم قدرهم، وإذا أفتى بعض المشايخ على غير هواه ومذهبه، أو بخلاف موقفه أخذ يلمزهم إما بالقصور أو التقصير، أو بالجبن أو المداهنة أو

العمالة، أو بالسذاجة وقلة الوعي والإدراك[1].

- التعالم والغرور فإنك تجد أحدهم لا يعرف بدهيات العلم الشرعي، والأحكام، وقواعد الدين، ونصوصه، أو قد يكون عنده علم قليل بلا أصول ولا ضوابط ولا فقه ولا رأي سديد، ويظن أنه بعلمه القليل وفهمه السقيم قد حاز علوم الأولين والآخرين، فيستقل بغروره عن العلماء، وينأى بنفسه عن مواصلة طلب العلم، فَيَهْلكُ ويُهْلِكُ.
- التشدد في الدين والتنطع: والخروج عن منهج الاعتدال في الدين الذي كان عليه النبي ﷺ، وقد حذر النبي ﷺ من ذلك في الحديث الذي رواه أبو هريرة –رضي الله عنه– قال: قال رسول الله ﷺ: (إن هذا الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه)[2].
- شدة الغيرة وقوة العاطفة لدى فئات من الشباب والمثقفين وغيرهم: بلا علم ولا فقه ولا حكمة، مع أن الغيرة على محارم الله وعلى دين الله

(١) وهؤلاء يجهلون (ويتجاهل الكثير منهم) الأصول الكبرى والقواعد العظمى المهمة التي قررها الشرع، واتفق عليها سلف الأمة، مثل:
- درء المفاسد مقدم على جلب المصالح: (فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ) (التغابن: من الآية١٦)
- المشقة تجلب التيسير (ما خير النبي ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما). صحيح البخاري برقم (٣٢٩٦)، صحيح مسلم (٤٢٩٤).
- (سددوا وقاربوا). صحيح البخاري برقم (٦٤٦٤) ومسلم (٢٨١٨).
- (وإياكم والغلو في الدين؛ فإنما هلك من كان قبلكم بالغلو في الدين) صحيح الجامع الصغير (٢٦٧٧).
- (إن هذا الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه) صحيح البخاري برقم (٣٩)، سنن النسائي برقم (٤٩٤٨).
- (ما كان الرفق في شيء إلا زانه، ولا نزع من شيء إلا شانه) صحيح الجامع الصغير برقم (٥٥٣٠).
- (إن الله رفيق يحب الرفق، ويعطي على الرفق ما لا يعطى على العنف ومالا يعطي على سواه) صحيح مسلم رقم الحديث (٤٦٩٣).

(٢) صحيح البخاري برقم (٣٩).

أمر محمود شرعاً، لكن ذلك مشروط بالحكمة والفقه والبصيرة، ومراعاة المصالح، ودرء المفاسد. فإذا فقدت هذه الشروط أو بعضها أدى ذلك إلى الغلو والتنطع والشدة والعنف في معالجة الأمور، وهذا مما لا يستقيم به للمسلمين أمر، لا في دينهم، ولا في دنياهم.

- فساد الإعلام: فإن وسائل الإعلام في أكثر البلاد الإسلامية غالباً ما تسخَّر في سبيل الشيطان، وهي من خيله ورجله في الدعوة إلى الضلالة، ونشر البدعة والزندقة، وترويج الرذيلة والفساد، وهتك الفضيلة، وحرب التدين وأهله، وبالمقابل نجد أن إسهام الإعلام في نشر الحق والفضيلة قليل وباهت جداً، ولا شك أن هذا الوضع منكر عظيم، ويعد أعظم استفزاز يثير غيرة كل مؤمن وحفيظة كل مسلم.
- عدم تجلية موقف الدولة من قضايا حساسة قد تغذي التكفير والغلو والتطرف لدى المغرضين والجاهلين، وتحاكم فيها الدولة غيابياً من قبل خصومها، ويجعلون صمتها ذريعة للإدانة بزعمهم، مثل:
  - صدور بعض الأنظمة التي يقال أنها تخالف الشرع، وأنها حكم بغير ما أنزل الله، كنظام التأمينات، ومعاشات التقاعد، والجمارك، والمحاكم التجارية والعسكرية ونحوها.
  - إقرار البنوك الربوية وحمايتها.
  - اشتراك الدولة في بعض المنظمات والعقود والعهود والأنظمة الدولية المخالفة للشرع.
  - ظهور بعض القرارات والظواهر الاستفزازية التي لم تكن مناسبة مثل أساليب بعض المسؤولين بوزارة التربية والتعليم في تغيير المناهج الشرعية، ومحاولة النيل من سياسة التعليم.
- الشعور بعدم القدرة على تغيير الواقع السياسي في الدول الإسلامية،

وأن هذه السلطات إنما فرضت على الشعوب وأنها تعمل ليل نهار للمحافظة على تسلطها، مع سد كل الإمكانيات للتغيير السياسي السلمي مع إدعاء هذه أغلب هذه السلطات بتبنيها للمنهج الديمقراطي في التغيير.

- الفقر والمشاكل الاقتصادية المجتمعية وارتفاع نسب البطالة، الأمر الذي يؤدي إلى إسقاط كل المشاكل والضغوط الشخصية على المجتمع.
- التحول الاجتماعي والرسمي السريع إلى أمور غير محمودة (مثل مظاهر التحلل ونزع الحجاب والاختلاط) كما في بعض المؤسسات، وشيوع كثير من المنكرات والممارسات المنافية للدين والأخلاق والفضيلة، مع ضعف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

العـــــلاج

إذا وضحت هذه الأسباب فإن العلاج لابد وأن يراعي البعد النفسي والاجتماعي مع البعد الديني والسياسي والاقتصادي والأمني. ويكون العلاج النفسي والاجتماعي في مرحلتين:

- المرحلة الأولى: الوقاية، على قدر المستطاع مع الاعتبار بالاختلاف المقدر الذي لا يمكن أن يتم إغفاله.
- المرحلة الثانية: العلاج وهو للأشخاص الذي تورطوا في التكفير.

أولا: الوقاية: من خلال:

- إبراز منهج أهل السنة والجماعة وأنهم الفرقة الوسط بين فرق الإسلام.
- إبراز العلماء الفضلاء الذين يتبعون منهج أهل السنة وجعلهم في موضع القدوة والمرجعية للمجتمع، مع حث هؤلاء العلماء على بيان الفرق الضالة وأهل العلمنة والإلحاد والرد عليهم وتفنيد شبههم أولا بأول.
- إحياء سنة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتفعيلها بين أهل المجتمع بحيث يأخذ أدناهم على أعلاهم حتى لا تغرق هذه السفينة.
- التوعية بأهمية دور المسجد من ناحية دينية وتربوية وعلمية واجتماعية، فالمساجد في الإسلام ليست للصلاة فحسب بل هي محور لحياة المسلمين.
- احتضان الشباب بمشاكلهم وأهوائهم وتقريبهم إلى الالتزام بشعائر الإسلام بلا إفراط ولا تفريط، والابتعاد عن محاربة شباب الصحوة الذين هم أحد ركائز المجتمع، تلك الحرب التي تجعل العداوة بين الشباب والسلطة أساس للعلاقة. ولا بد من التذكير دائما بأن العنف لا يولد إلا عنفا.

- تحسين دور الإعلام وجعل القنوات الإعلامية قنوات هادفة لا هادمة مفاتيح للخير مغاليق للشر، وهذا لن يأتي إلا بتكليف أهل الالتزام بتولي شئون هذه القنوات للكف عن نشر الرذيلة والفحشاء ونشر الخير للناس.
- استخدام وسائل الإعلام في إبراز موقف السلطة عند القضايا الشائكة التي عادة ما تؤخذ على الأنظمة الحاكمة، مثل قضايا فلسطين، والتعامل مع القوات الأجنبية، والبنوك الربوية وشركات التأمين، والفساد الإداري، ....إلخ. فإن توضيح موقف السلطة مزيل للبس عند المجتمع.
- جعل الإسلام قضية يتبناها الجميع سواء كان حاكما أو محكوما، فلا يكون الإسلام مسؤولا فقط من بعض الأشخاص الذين يتولون رفع رايته بالطريقة التي يرونها هم.
- دعوة الناس – خاصة غير الملتزمين – إلى طريق الله المستقيم والتوبة والإنابة إلى الله حتى يمن على المجتمع بالرحمة والبركة فيقل الخلاف ويعم الائتلاف.
- نشر العلم الشرعي الصحيح من خلال المساجد ووسائل الإعلام مع التحذير من الفرق الضالة والبدع المختلفة.
- محاربة الظلم الذي يقع بين الأفراد وبين الأنظمة وفي المجتمع فالظلم كله لا يأتي بخير.
- التقريب بين العلماء والشباب وسد الفجوة التربوية الموجودة بينهم.
- الاهتمام بالتربية المنزلية وتفعيل دور الرقابة الأبوية والاستعانة باستشاريي النفس والتربية عند ظهور أي صعوبات أو ملاحظات أثناء التربية. ومن المهم نبذ العنف أثناء التربية سواء كان في المنزل أو المدرسة.

- دعوة المناهج والحركات الإسلامية إلى تصحيح المسار وتبني العلم كقضية أساسية في منهج الدعوة.
- منع تصدر حدثاء الأسنان والتحذير من تصدر صغار السن، مع وضع معايير لتقييم الشباب الطامح للتصدر، هذه المعايير تبين المرحلة التي هو فيها من الناحية العلمية والعملية والدعوية والخطابية وغيرها، فيكون على دراية بخطواته وماذا ينقصه ليستكملها.
- التحذير من أهواء النفوس من خلال العلماء والخطباء والشيوخ، وتبيين أن الهوى ما هو إلا تابع للشرع وليس حاكما عليه. وأن المسلم عليه ألا يهتم بنفسه ورغباته فحسب بل عليه أن ينظر إلى المجتمع ومتطلباته كذلك.
- استغلال العاطفة والحماس لدى الشباب وتفعيلها في ما يفيد الإسلام ويرضي طموح وحماس الشباب. ومبدأ الرضى بالأفعال والعلم بأن النتائج هي من عند الله هو من المبادئ المهمة التي يجب إلى تعليمها للشباب بالإضافة إلى الصبر سوا ء كان على الواقع أو على تغيير هذا الواقع.

ثانيا: العلاج: ينطبق على الذين قد تورطوا فكريا أو عمليا في التكفير

- احتضان هؤلاء الشباب وإحساسهم أن المجتمع كله حريص عليهم وأنه سيسعى إلى تحسين وضعهم، وتجنب تنبيههم على أن المجتمع لا يحبهم وينبذهم فيقابلون ذلك بنفس العداوة والنبذ.
- تعليمهم في أول الأمر فقه الخلاف، وكيف أن الخلاف هو أمر قدري يحتمل الصواب مع أحد المختلفين أو يجانبهما فيكون الصواب مع رأي آخر. كما ينبغي توضيح أن الصواب لا يمكن أن يكون مع شخص على طول الخط إنما يحالفه أحيانا ويخطئه أخرى.

- تعليمهم مبادئ وطرق الحوار الهادئ البناء الذي من خلاله يستطيع المختلفون الوصول إلى النتيجة النهائية المطلوبة.
- تعليم القواعد الأساسية في العلوم الشرعية لا سيما الأهداف العامة للشريعة الإسلامية التي قد أغفلتها أغلب الفرق الإسلامية فضلت وأضلت.
- عرض النماذج المشرقة للتائبين من الأفكار الخاطئة وخاصة الذين يكونون قد تعلموا العلم الشرعي فيدحضوا شبهات التكفير ويبينوا محاسن الوسطية.
- الاستعانة بالأطباء النفسيين والأخصائيين النفسيين والاجتماعيين في التعامل مع المشاكل النفسية والاجتماعية التي يعاني منها الذين وقعوا في التكفير.
- تقديم توصيات واضحة إلى الأهل بكيفية التعامل مع الشخص التائب من هذه الأفكار واعتبار الفترة الأولى من التوبة كأنها فترة نقاهة من مرض قد تتحول إلى الشفاء التام وقد يحدث الانتكاس لا قدر الله فيكونوا على الانتباه لذلك.
- استغلال العاطفة والحماس في خدمة هذا الدين بالطريقة الصحيحة مع معالجة الاندفاعية الحادثة في فترة الشباب.
- توفير وظائف مجزية للتائبين من هذا الفكر والانخراط في العمل الاجتماعي للاختلاط الاكبر مع الواقع الذي ينقص هذه الشخصيات.
- التواصل مع أهل العلم والفقه حتى يشعر التائب كيف أن كبار العلماء يهتمون بصغار التائبين.

المراجع

- القرآن الكريم.

كتب الحديث:

- التكفير مفهومه أخطاره وضوابطه أحمد محمد بوقرين، نسخة الكترونية.
- حديث حول الأحداث ناصر العقل، نسخة الكترونية.
- صحيح البخاري، ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي، الطبعة السلفية.
- صحيح الجامع الصغير وزيادته للألباني، المكتب الإسلامي.
- صحيح سنن النسائي للألباني، مكتب التربية العربي لدول الخليج.
- صحيح مسلم بترقيم محمد فؤاد عبد الباقي شرح النووي.
- الغلو في الدين عبد الرحمن اللويحق، طبعة الرسالة.
- قضية التكفير بين أهل السنة وفرق الضلال في ضوء الكتاب والسنة سعيد القحطاني، نسخة الكترونية.
- كتب العقيدة والفكر والفرق

مراجع أجنبية:

- Ferracuti, Franco, and F. Bruno: "Psychiatric Aspects of Terrorism in Italy." Pages 199–213 in I.L. Barak–Glantz and C.R. Huff, eds., The Mad, the Bad and the Different: Essays in Honor of Simon Dinhz. Lexington, Massachusetts: Lexington Books, 1981.
- John W. Crayton. "Terrorism and the Psychology of the Self." Pages 33–41 in Lawrence Zelic Freedman and Yonah Alexander, eds., Perspectives on Terrorism. Wilmington, Delaware: Scholarly Resources, 1983.

- Joseph Margolin "Psychological Perspectives in Terrorism." Pages 273–74 in Yonah Alexander and Seymour Maxwell Finger, eds., Terrorism: Interdisciplinary Perspectives. New York: John Jay, 1977.
- Kaplan and Sadock's: Synopsis of Psychiatry, Tenth Edition, 2007
- Knutson, Jeanne N. "Social and Psychodynamic Pressures Toward a Negative Identity. Pages 105–52 in Yonah Alexander and John M. Gleason, eds., Behavioral and Quantitative Perspectives on Terrorism. New York: Pergamon, 1981.
- Rex A. Hudson, Marilyn Majeska: The Sociology and Psychology of Terrorism, Who becomes a terrorist and why? Federal Research Division, Library of Congress, Washington D.C., 1999.
- Richard M. Pearlstein: The Mind of the Political Terrorist. Wilmington, Delaware: Scholarly Resources, 1991
- Ted Robert Gurr, Why Men Rebel. Princeton, New Jersey: Princeton University Press, 1970.